

الدكتور محمد حسين

الحياة الأدبية
في

جزيرة العرب

الطبعة الأولى

١٩٣٥ — ١٣٥٤

٥ غرويس سورية . مكتبة النشر العربي . دمشق

الفن

SC/1
892.
95

الأستاذ حسين

الحجاء الأندلسيين

جزيرة العرب

الطبعة الأولى

١٩٢٥ — ١٣٥٤

٥ غروب سوريا مكتب النشر العربي دمشق



نشرت ترجمة هذا البحث في مجلة Open Court التي تصدر بشيكاغو بأمریکا .

وقد رأى فيه الشيخ خليل الرواف خير صورة
تقدم لقراء لغة الضاد عن الحياة الادبية في
جزيرة العرب ، ولا سيما وأن الذين بحثوا في
الحركة الوهاية أهملوا أثرها في الحياة العقلية
والادبية ، وأن الدكتور طه حسين قد عالج
كل هذا في بحثه الدقيق - الذي نتقدم به
إلى القراء - بتذكيره العميق وأسألوه
الرشيق .

لذلك امتأذن حضرته الدكتور طه حسين
في نشر هذا البحث ، فتفضل — حفظه الله
ورعاه — بالاذن .

وقد عهد الشيخ خليل الرواف إلى مكتبنا
بالإشراف على طبعه ونشره ؛ فكان لنا بذلك
من شرف الموضوع ، وشرف المؤلف ، وشرف
صاحب الفكرة ما نسجله في أول صفحة من
صفحات هذه الرسالة .

مكتب النشر العربي
بدمشق

الحياة الأوبية في جزيرة العرب

تستطيع أن ترسم لبلاد العرب في هذه الأيام صورتين مختلفتين أشدَّ الاختلاف وكتاهما مع ذلك صادقة صحيحة . فهي قسم من آسيا يسمى باسم واحد منذ عصور بعيدة جداً ولكنه يتألف من أقطار وأقاليم تختلف في طبيعتها واثباين أحوالها الجغرافية والاجتماعية والسياسية والدينية أيضاً . فمنها السهل ومنها الوعر ، ومنها المرتفع ومنها المنخفض ، ومنها الخصب الغني ومنها الجلب القاحل ، ومنها ما يسكنه الحضر ومنها ما يسكنه البدو . ثم منها ما يحتفظ باستقلال سياسي قوي أو ضعيف ، ومنها ما خضع

للأجنبي خضوعاً تاماً . ومنها بعد هذا كله من يذهبون في الدين مذهب أهل السنة ويتشددون في المحافظة على عقائد السلف الصالح من المسلمين ، ومن يذهبون مذهب الشيعة معتدلاً أو متشدداً ، ومن يقيم حياته الدينية على التصوف ، ومن يعيش عيشة المسلمين العاديين في البلاد الإسلامية الأخرى ، ومن جهل الإسلام جهلاً تاماً وانغمس في نوع من البداوة هو أشبه شيء بما يصوره الشعر العربي القديم من حياة العرب الجاهليين الذين كانوا يعبدون الأوثان والأشجار قبل ظهور الإسلام .

تجد هذا كله في بلاد العرب ، فلا تكاد تصدق أن لهذه البلاد وحدة ما أو أن من اليسير أن نتحدث عنها وعن آدابها كما نتحدث عن أي بلد آخر من بلاد الشرق

العربي . فأنت تستطيع أن تتحدث عن مصر وعن سورية
وعن تونس أو الجزائر فتصف حياتها الاجتماعية والسياسية
والأدبية والدينية في غير مشقة ولا صعوبة ، لأن لكل بلد
من هذه البلاد وحدته الجغرافية والسياسية واللغوية . وهذه
الوحدة تمكنك من أن تصف كل بلد من هذه البلاد
وصفاً مقارباً إن لم يكن دقيقاً بكل الدقة . أما بلاد العرب
أو جزيرة العرب كما يسميها الجغرافيون فليس لها من هذه
الوحدة حظ ، فما نقوله عن الحجاز لا يصدق على اليمن وما
نقوله في أمر نجد لا يصح بالقياس إلى تهامة ، فليس هناك
قطر واحد وإنما هناك أقطار وأقاليم .

وهذه الصورة التي أصورها لك الآن من بلاد

العرب قريبة كل القرب من الصورة التي تجدها لهذه البلاد
في الشعر الجاهلي حين لم تكن هذه الاقاليم كلها تتفق
إلا في الاسم ، وحين كانت تختلف في اللغات واللهجات
وفي النظم السياسية والاجتماعية والدينية باختلاف الأقاليم
والأقطار ، وحين لم يكن الجمل (وهو أداة المواصلات
الوحيدة) يستطيع أن يبغي ما بين هذه الاقاليم من الفروق .
فهذه الأقاليم لا تزال اليوم كما كانت قبل الإسلام ، لم
تبلغ فيها المسافات ولم تقرب بينها السكك الحديدية ، ولم
يؤثر فيها تأثيراً قوياً استعمال التلغراف على قلة استعماله ،
ولا مرور السفن البخارية على سواحلها في البحر الأحمر
أو بحر الهند أو الخليج الفارسي . فهي إذن على حالها القديم
تسكاد نكون معزولة عن العالم الخارجي ، وهي إذن على

حالتها القديم لا يسكاد يوجد اتصال وطيد بين أقاليمها
الداخلية . ومن الغريب أن وضعها السياسي بعد الحرب
الكبرى يشبه جداً وضعها السياسي في القرن الخامس
والسادس للميلاد قل أن يظهر الإسلام فيوثق الصلة
بينها وبين بلاد الشرق الأدنى والأوسط .

كانت أطراف الجزيرة العربية في القرن الخامس
والسادس للميلاد متصلة بالدول الأجنبية المجاورة لها .
فكانت أطرافها من جهة الشام متصلة بدولة البيزنطيين
ونشأ عن هذا الاتصال أن نظمت علاقات سياسية بين
إمراء الغسانيين وقيصرة قسطنطينية أشبه بعلاقات الحماية
في هذا العصر الحديث . وأي شيء الآن إمارة شرقي
الأردن ؟ هي إمارة الغسانيين القدماء ، فيها مدن لها حظ

ضئيل من الحضارة، وفيها بادية قوية غنية، وعلى رأسها
أمير كان غسانياً قبل الإسلام وهو هاشمي الآن . وهذه
الإمارة كانت خاضعة لحماية قسطنطينية قبل الإسلام
وهي الآن خاضعة لحماية لندره . وأطراف الجزيرة من
ناحية العراق كانت متصلة بالفرس تقوم فيها إمارة عربية
يحميها أكاسرة الفرس وتحافظ هي على حدود الدولة
الساسانية من غارة البدو . وهي الآن تقوم فيها مملكة
عربية ليس على رأسها نخعي كما كانت الحال من قبل بل
هاشمي . وليس يحميها الفرس وإنما يحميها الانكيز . وبلاد
اليمن وما يتصل بها من الأقاليم الجنوبية في الجزيرة كانت
في القرن الخامس والسادس موضع النزاع بين الفرس
والروم . وكانت تخضع للروم بواسطة الحبشة أو تخضع

للفرس مباشرة أو تظفر باستقلال ضئيل بظل موضع النزاع
بين أوائلك وهرلاء . وهي الآن كما كانت من قبل ،
بعضها خاضع لسلطات الانكليز مباشرة على الساحل ،
وبعضها مستقل ولكنه موضع النزاع والتنافس بين القوة
الانكليزية والقوة الايطالية .

تغيرت أسماء الدول الحامية لأطراف الجزيرة أو
الطامعة فيها وتغيرت بعض الشيء أشكال الحماية والطمع
ولكن طبيعة الأشياء لم تتغير وأسباب الحماية والطمع لم
تتغير : فالدول الأجنبية تحمي أطراف جزيرة العرب ، إما
خوفاً من البدو وإما رغبة في بسط النفوذ التجاري وإما
للأمريين جميعاً . وطريقة العرب أنفسهم في فهم العلاقة بينهم
وبين الأجانب لم تتغير ، هي في القرن العشرين كما كانت

في القرن الخامس والسادس تقوم على الحاجة إلى المال والخوف من القرّة ، فأبي الأ جانب المجاورين للجزيرة كان أشد قوة وأكثر مالا فهو صاحب النفوذ عند هؤلاء الناس . أما قلب الجزيرة وداخليتها فلم يتغير كذلك إلا قليلا ، بادية مستقلة استقلالاً تاماً تظهر الخضوع والطاعة لأمراء الحضرة ، رغبة أو رهبة أو خوفاً وطمعاً ، فليس هناك فرق بين إمام صنعاء في اليمن وبين ملك من ملوك حمير في العصر القديم له سلطته المركزية في الحضرة ، ولكن أصحاب البادية مستقلون لا يخضعون له إلا بمقدار ما يخافونه أو يطعمون في عطائه ، ومثل هذا في نجد وتهامة والحجاز .

هذه إحدى الصورتين اللتين أشرت إليهما في أول هذا الفصل . أما الصورة الثانية فتشمل بلاد العرب من حيث أنها وحدة متشابهة من بعض الوجوه ، فالدين الرسمي لهذه البلاد هو الإسلام ، واللغة الرسمية لهذه البلاد هي لغة القرآن ، والحضارة الرسمية في هذه البلاد هي الحضارة الإسلامية القديمة . وإذن فهما يختلف سكان الجزيرة العربية في موطنهم الجغرافي وفي نظامهم السياسي وفي مذهبهم الديني وفي علاقتهم بالأجانب وفي لهجاتهم الخاصة فهم جميعاً مسلمون وهم جميعاً يكتبون لغة القرآن إذا كتبوا ويفكرون ويعيشون على نحو ما كان يفكر ويعيش المسلم قبل أن تثبت الصلة بينه وبين الأوروبيين والأمريكيين . ومن هذه الناحية يستطيع الباحث عن الآداب في

البلاد العربية أن يتحدث عنها في مقال واحد كأنه
يتحدث عن شعب واحد . على أن من الحق عليه أن يلاحظ
الظروف الخاصة التي تحيط ببعض الأقاليم فتجعل في آدابها
صفات ليست في غيرها من آداب الأقاليم الأخرى . ولكن
الكلام عن الأدب في جزيرة العرب يحتاج إلى أن نحل
مسألة مشكلة قبل الشروع فيه ، ذلك أن بلاد العرب هي
مهد الأدب العربي القديم ، وفي شمالها ووسطها ظهر الشعر
الجاهلي ، وفي الحجاز ظهر القرآن ومن الحجاز ونجد ونهضة
انتشرت اللغة العربية وما كانت تحمل من أدب ودين إلى
بلاد الشرق الأدنى ، فعمرت أكثره وظلت موطناً للأدب
الخالص طول القرن الأول للهجرة . فكبار الشعراء في
العصر الأموي جميعاً من البادية أو من حواضر الحجاز
ونجد .

ومع أن العراق قد عظم شأنه جداً في العصر العباسي
ونبع فيه جماعة من الشعراء — منهم من أصله فارسي
ومنهم من أصله من هذه الأخطاط السامية التي كانت
تنتشر في العراق والجزيرة والشام — فقد ظلَّ في البادية
شعراء ممتازون كانوا يفدون على الخلفاء والوزراء في بغداد
إلى أواخر القرن الثالث للهجرة . ثم انقطعت الصلة
الأدبية أو كادت تنقطع بين جزيرة العرب وبلاد الشرق
العربي ، وعادت الجزيرة العربية إلى ما كانت فيه قبل
الإسلام من عزلة تامة في الأدب وشديدة في السيامية
وغيرها من مظاهر الحياة .

فما سبب هذه العزلة التي نشأ عنها أن أصبحت هذه
البلاد — التي كانت مصدر النور للشرق الإسلامي كله —

موطن الجهل والظلمة ؟ واصبحت هذه البلاد - التي
كانت مهد اللغة العربية والأدب العربي - اقل البلاد حظاً
من الامتياز في الأدب واللغة والدين فضلاً عن العلوم
الأخرى ؟

ليس الجواب على هذا السؤال عسيراً ، فقد كانت
الدولة الأموية عصرية خالصة ، وكان خلفاء بني أمية
ينظرون إلى جزيرة العرب نظراً خاصاً ، لأنها موطن
الارستقراطية الحاكمة من جهة ، ولأنها موطن الأمة التي
يستمد منها الجند من جهة أخرى ، فليس غريباً إذن ان
تكون الجزيرة العربية أشد بلاد الإسلام امتيازاً في ذلك
الوقت . كانت موطن الرووس المفكرة وموطن الأيدي
العاملة في إقامة الدولة . كانت حاكمة وكان غيرها من

البلاد محكوماً . فلما قامت الدولة العباسية تغير كل شيء
لأن هذه الدولة قامت على اكتاف الفرس وتديرهم .
فقامت خراسان مقام جزيرة العرب وأصبحت هي التي تدير
الدولة بلرؤوس المفكرة ، بالوزراء ورجال القصر
وبالأيدي العاملة بالجيش وعمال الدواوين . وقد أقصى العرب
شيئاً فشيئاً عن الجيش والدواوين .

ولم تكن بلاد العرب تشبه في الخصب والغنى بقية
البلاد الإسلامية فأهماتها الدولة ويشت هي من الخلافة .
ولم تكن المواصلات بينها وبين عاصمة الخلافة منظمة
ولا سهلة فليس عجباً أن تضعف العلاقة بينها وبين مركز
الحكومة الإسلامية في بغداد شيئاً فشيئاً حتى انقطعت
انقطاعاً تاماً . أضف إلى ذلك أن تغلب الفرس والترك على

بتعداد لم يكن من شأنه أن يحتفظ بالعلاقة بين جزيرة
العرب نفسها ومواطن الحضارة الإسلامية ، وأن جزيرة
العرب نفسها لم تكن من الغنى والثروة بحيث نستطيع أن
نعيش لحسابها ونحتفظ بحظها من الحياة الأدبية الراقية ، ومن
الحضارة التي جلبت إليها جلاباً أيام الأمويين . لهذا كله
انسحبت الجزيرة - إن صحَّ هذا التعبير - من الحياة
الإسلامية العامة . فأما باديتها فمادت إلى جاهليتها قليلاً
قليلاً ، وأما حواضرها فاحتفظت بشيء ضئيل بقايد
من الحضارة والأدب والعلم . ولولا أن البلاد المقدسة في
الجزيرة العربية وأن المسلمين يحجون إلى مكة والمدينة في
كل عام وأن لليمن أهمية خاصة في التجارة أثناء القرون
الوسطى لأهملت هذه البلاد إهمالاً تاماً ولندسيها تاريخ
المسلمين .

نشأت عن هذه العزلة آثار سيئة جداً في حياة الآداب
واللغة العربية عامة ، وفي حياة اللغة والآداب في جزيرة
العرب نفسها بنوع خاص : فقد كان اتصال العالم الإسلامي
بجزيرة العرب في القرون الأولى للتاريخ الإسلامي يبعث
في الآداب العربية في العراق والشام ومصر روحاً من
البداءة وحياة الصحراء يمنحها شيئاً من القوة والجزالة في
الألفاظ والأساليب والمعاني أحياناً . فلما انقطعت هذه
الصلة أمعن هذا الأدب العربي في الحضارة والترف وفقد
روحه العربي الخالص شيئاً فشيئاً حتى استحال آخر الأمر
إلى جسم لا تكاد تمشي فيه الحياة : فسدت ألفاظه
فكثرت فيها العجمة ، وفسدت معانيه لإسراف الشعراء
والكتاب في التدقيق ، وفسدت أساليبه فظهرت فيها

الركاكة والغموض .

وكانت جزيرة العرب في تلك القرون الأولى تستفيد من هذا الاتصال ، فكان وفود الأعراب إلى حواضر العراق والشام ووفود أهل الحضر إلى مدن الحجاز ونجد يثير في نفوس الأعراب معاني ما كانت لتثور في نفوسهم لو ظلوا في عزلتهم الأولى . ويسكنني أن يلاحظ أن الغزل الحجازي - وهو أجمل ما قيل في الإسلام من الغزل - إنما هو نتيجة لتبادل الصلات بين جزيرة العرب وحواضر العراق والشام ومصر . على أن العلم نفسه قد خسر بهذه العزلة خسارة لا سبيل إلى تعويضها بحال من الأحوال ، فمن المحقق أن أعراب الحجاز لم ينصرفوا عن الإنتاج الأدبي بمجرد أن أنقطت الصلة بينهم وبين مراكز الحضارة الإسلامية ،

بل كان فيهم الشعراء والخطباء والقصاص والرواة، ولكن
شعرهم وقصصهم وآثارهم الأدبية بوجه عام لم تكن تُنقل
إلى مدارس البصرة والكوفة وبغداد وتدرس فيها كما
كانت الحال في القرون الأولى، ولم تكن تدوّن في
البادية وإنما كانت تحفظها الذاكرة عشرة السنين ثم
يذهب بها صوت الرواة والحفاظ وتنتثر في الصحراء كما
تنتثر الرمال بتأثير الرياح .

وعلى هذا أخذت اللغة العربية وآدابها في الجزيرة
تتغير وينالها التطور من حين إلى حين دون أن يدون هذا
التطور أو يسجل ، وأصبح من المستحيل الآن أن نعرف
الصلة الحقيقية بين اللهجات العربية في الجزيرة الآن وبين
اللهجات التي كانت فيها أثناء القرون الثلاثة الأولى .

على أن العلاقات لم تنقطع بين بلاد العرب وبين
البلاد الإسلامية الأخرى من كل وجه ، فقد كانت
المسلمون يحجون في كل سنة كما قدمت ، وكان مركز
اليمن التجاري بهم بلاد البحر الأبيض المتوسط دائماً ،
ولذلك لم تكد تفسد العلاقة بين الجزيرة وبعداد حتى قامت
مقامها علاقات أخرى بين الجزيرة والقاهرة وحرصت
القاهرة منذ أيام الفاطميين على أن يكون نفوذها عظيماً
جداً في الحجاز واليمن بنوع خاص ، ولكن هذه العلاقات
كانت سياسية دينية أكثر مما كانت أدبية علمية .
والذين يريدون أن يتتبعوا تاريخ الأدب العربي داخل
الجزيرة يستطيعون أن يظفروا بشيء من ذلك في مدن
الحجاز واليمن ، وذلك بفضل هذه العلاقة بين القطرين

وبين مصر وبفضل المسكاة الدينية لمكة والمدينة .

أما نجد فإن حياته الأدبية قد ضاعت ضياعاً تاماً الى
أواخر القرن الثامن عشر تقريباً .

وعلى كل حال فإن في جزيرة العرب أدبين مختلفين
أحدهما شعبي يتخذ لغة الشعب أداة للتعبير لا في جزيرة
العرب وحدها بل في الوادي العربية كلها في الشام ومصر
وأفريقيا الشمالية . وهذا الأدب - وإن فسدت لغته -
حي قوي له قيمته الممتازة من حيث أنه مرآة صافية لحياة
الأعراب في باديتهم ، وهو في موضوعاته ومعانيه وأساليبه
مشبه كل الشبه للأدب العربي القديم الذي كان ينشأ في
المصر الجاهلي وفي القرون الأولى للتاريخ الإسلامي . ذلك

لأن حياة العرب في ألبادية لم تتغير بحال من الأحوال ،
فحياة القبيلة الاجتماعية والسياسية والمادية الآن كما كانت
منذ ثلاثة عشر قرناً . فطبيعي إذن أن يكون الشعر
المصور لهذه الحياة كالشعر الذي يصور الحياة القديمة وأن
يكون موضوعه مايقع بين القبائل من حروب ومخاصمات
تدعو إلى الفخر والمدح والهجاء والثرثاء وما يثور في نفس
الأفراد من أنواع الآلام والذات التي تدعو إلى الغناء
بالشكوى حيناً والحب حيناً آخر والعتاب مرة ثالثة .
والقصيدة العربية الشعبية الآن كالقصيدة العربية القديمة
تبدأ بالغزل القليل البسيط المؤثر ثم تنقل إلى وصف
الإبل والصحراء فتطيل في ذلك ثم تصل إلى غرضها من
مدح أو فخر أو غيرهما من فنون الشعر . ومثل ذلك

يقال في الخطابة ، فالبدوي الآن فصيح كالبدوي القديم
حلوا الحديث محب للسحر والقصص إذا اطمأن واستراح ،
خطيب بليغ إذا كان بينه وبين غيره خصومة أو جدال .
وهذا الأدب العربي الشعبي يرويه في البادية جماعة من
الرواة يتوارثونه عن آبائهم ويورثونه لأبنائهم ويكسبون
بروايته حياتهم المادية ومكانتهم الممتازة أحياناً .
ولسوء الحظ لا يعنى العلماء في الشرق العربي بهذا الأدب الشعبي
عنايةً ما لأن اغته بعبدة عن لغة القرآن ، وأدباء المسلمين
لم يستطيعوا بعد أن ينظروا إلى الأدب على أنه غاية تطلب
لنفسها وإنما الأدب عندهم وسيلة إلى الدين .

أما الأدب الآخر فهو أدب تقليدي لا يكاد
يوجد في البادية وإنما مر كزه الحواضر عادة وهو أدب

قد اتخذ لغة القرآن أداة للتعبير . وإذا كان الأدب الشعبي
مصوراً للحياة العربية البدوية تصويراً صادقاً ممتازاً ، فإن
الأدب التقليدي بعيدٌ كل البعد عن هذا التصوير . ذلك
لأنه متكلف مصنوع لا صلة بينه وبين الطبيعة الحرة ، فهو
لا يعكس ما يحسه الشعراء والكتاب وإنما يمثل ما يريد
الشعراء والكتاب أن يضعوه فيه . حظ النفاق فيه
أكثر من حظ الصراحة ، ثم هو تقليدي لا يصدر فيه
أصحابه عن أنفسهم وإنما يقلدون فيه أهل الحواضر من
المصريين والسوريين والعراقيين . كذلك كان أدباء
المدن في جزيرة العرب طول القرون الوسطى وكذلك هم
الآن . ونستطيع أن نؤكد أن أهل الحجاز يستمدون
أدبهم التقليدي من مصر والشام بنوع خاص ، وقد يتأثرون

بغير المصريين والسوريين من الذين يقدون عليهم للحج .
ولكن كتبهم التي يدرسونها في مكة والمدينة من الكتب
التي يدرسها المصريون في الأزهر ، وشعرهم الذي يقرؤونه
أو يحفظونه هو الشعر الذي يقرأ ويدرس في مصر والشام ،
فهم إن أرادوا أن يكتبوا في العلوم الدينية قلدوا المصريين
كما أنهم يقلدونهم في الدرس ، وهم إن أرادوا أن ينظروا
الشعر قلدوا المصريين والسوريين .

أما أهل اليمن فليس تأثرهم بمصر أقل من تأثر
الحجازيين وإن كان لهم مذهبهم الديني الخاص ، فهم
على كل حال يذهبون مذهب المصريين في درس العلوم
الدينية واللغوية . هم تلاميذ الأزهر يقدون عليه فيتعلمون

ثم يعودون إلى بلادهم فيعلمون . والغريب أنهم لا
يزالون يدرسون العلوم الرياضية والطبيعية على نحو ما
كانت تدرس في الأزهر قبل أن يمسه التجديد في أوائل
هذا القرن فالفلك والحساب والمساحة والهندسة والطب
كل ذلك يدرس هناك كما كان يدرس في الأزهر وغيره
من المعاهد الإسلامية قبل أن تتأثر بالحضارة الأوروبية
الحديثة . واليمن شعر ولكنه تقليدي كشعر الحجاز يذهب
فيه أصحابه مذهب المصريين قبل أن يرتقي الشعر المصري .
وأنت تكلف نفسك مشقة شديدة إن أردت أن تلتحق في
اليمن أو في الحجاز الآن شعراً له قيمة فنية حقيقية ، إنما هي
ألفاظ مرصوفة يكثفها البديع وتدور حول معان تافهة .
وما رأيك في أربعة أو خمسة من الشعراء يضيئون وقتهم

في صنعاء في نظم القصائد الطويلة الركيكة حول هذا
المعنى وهو : « اي الأمرين خير : قرب الروح من الروح
أم قرب الجسم من الجسم ؟ »

وقل مثل هذا في مدح الحجازيين واليهانيين وراثتهم
وهجائهم وغزلهم : كلام لا طائل تحته ولا غناء فيه ،
صورة صحيحة لما كان يقال في مصر والشام قبل خمسين
سنة .

أما شرقي البلاد العربية فتأثره بالعراق أشد من تأثره
بمصر والشام ، ففي بعض القرى في أطراف الجزيرة مما يلي
العراق شعراء ، وفيها أيضا علماء في اللغة والدين ، وهم تلاميذ
العلماء والشعراء الذين يظهرون في بغداد والبصرة . ولم يكن
أهل العراق أحسن حالا من السوربيين والمصريين أيام السلطان

التركي فليس غريباً أن يكون تلاميذهم في أطراف الجزيرة
العربية وفي نجد مقلدين متكلفين . وإنه لما يضحك أن
تقرأ طائفة من الشعر رواها الألويسي لجماعة من شعراء
نجد بصفون بها عيناً ينبع منها الماء الحار هناك ويختلف
الناس اليها للاستشفاء . لا نجد في ذلك الكلام المنظوم فناً
ولا شعوراً بالجمال ولا تصويراً له ولا شيئاً يبعث في نفسك
اللذة الفنية وإنما هي ألفاظ سقيمة ثقيلة قد زادها النظم
السيء فساداً ورداءة .

هذه كانت حال الأدب في بلاد العرب إلى وقت
قريب جداً ، إلى ما بعد الحرب الكبرى : تقليد شديد
عقيم للمصريين والسوريين والعراقيين في علوم الدين واللغة
وفي الأدب .

ولكن حركة التجديد العلمي والأدبي ظهرت في

مصر والشام والعراق منذ القرن الماضي واشتدت جداً في هذه
القرن ولا سيما بعد الحرب بفضل هذا الاختلاط العنيف
الذي يزداد كل يوم بين الشرق والغرب ، فتأثر كل شيء
بحركة التجديد هذه في الشرق حتى الأزهر نفسه ، ولم
يكن بدّ من أن يصل أثر هذه الحركة إلى بلاد العرب
لأن الحرب الكبرى هزتها كما هزت غيرها من البلاد ،
ولأنها اتصلت بالأوربيين اتصالاً مباشراً شديداً بعد الحرب
ولأن العلاقات كثرت جداً بينها وبين الشرق العربي .
وكما أنها كانت تقلد هذه البلاد فيما كان عندها من أدب
القرون الوسطى فلا بدّ لها من تقليدها في أدبها الحديث .

مَلَى أن الباحث عن الحياة العقلية والأدبية في جزيرة

العرب لا يستطيع أن يهمل حركة عتيقة نشأت فيها أثناء
القرن الثامن عشر فلفتت إليها العالم الحديث في الشرق
والغرب واضطرته أن يهتم بأمرها ، وأحدثت فيها آثاراً
خطيرة هان شأنها بعض الشيء ولكنه عاد فاشتد في هذه
الأيام وأخذ يؤثر لا في الجزيرة وحدها بل في علاقاتها
بالأمم الأوربية أيضاً . هذه الحركة هي حركة الروهابيين
التي أحدثها محمد بن عبد الروهاب شيخ من شيوخ نجد .

نشأ محمد بن عبد الوهاب في بيت علم وفقه وقضاء .
تثقف على أبيه ثم رحل إلى العراق فسمع من علماء البصرة
وفقهاءها وأظهر فيها آراءه الجديدة القديمة معاً ، فسخط
عليه الناس وأخرج من البصرة ، وكان يريد أن يذهب
إلى الشام فحال الفقر بينه وبين ذلك فعاد إلى نجد وأقام

مع أيه حيناً يناظر ويدعو إلى آرائه حتى ظهر أمره
وانتشر مذهبه .

وانقسم الناس فيه قسمين : فكان له الأنصار وكان
له الخصوم ، وتعرضت حياته آخر الأمر للخطر ، فأخذ
يعرض نفسه على الأمراء ورؤساء العشائر ليبيروه ويحموا
دعوتَه حتى انتهى به الأمر إلى قرية الدرعية ، وهناك
عرض نفسه على أميرها محمد بن سعود فأجاره وبايعه على
المعونة والنصرة . ومن ذلك اليوم أصبح المذهب الجديد
مذهباً رسمياً يعتمد على قوة سياسية تؤيده وتحميه بل تنشره
في أقطار نجد بالدعوة اللينة حيناً وبالسيف والحرب في
أكثر الأحيان . وعن هذا التحالف بين الدين والسياسة
نشأت في الجزيرة العربية دولة سياسية عظم أمرها واشتد

خطرها حتى أشفق منها الترك أشد الإشفاق ، فقاوموها
بما وسعتهم المقاومة ، فلما لم يفلحوا استعانوا بالمصريين وكان
أمرهم إذ ذاك إلى محمد علي الكبير ، فنجح المصريون في
إضعاف هذه الحركة وإزالة هذه الدولة الجديدة ورد
نصرانها إلى ما كانوا عليه قبل ذلك من التواضع . فلا بد
من وقفة قصيرة عند هذا المذهب الجديد لتعرف ما هو
وما مبالغ تأثيره في الحياة العقلية العربية في هذا العصر
الحديث .

قلت إن هذا المذهب جديد قديم معاً . والواقع أنه
جديد بالنسبة إلى المعاصرين ولكنه قديم في حقيقة الأمر
لأنه ليس إلا الدعوة القوية إلى الإسلام الخالص النقي
المطهر من كل شوائب الشرك والوثنية . هو الدعوة إلى

الإسلام كما جاء به النبي خالصاً لله وحده ملغياً لكل واسطة بين
الله وبين الناس . هو إحياء للإسلام العربي وتطهير له مما أصابه
من نتائج الجهل ومن نتائج الاختلاط بغير العرب . فقد
أنكر محمد بن عبد الوهاب على أهل نجد ما كانوا قد عادوا
إليه من جاهلية في العقيدة والسيرة . كانوا يعظمون القبور
ويتخذون بعض الموتى شفعاء عند الله ويعظمون الأشجار
والأحجار ويرون أن لها من القوة ما ينفع وما يضر .
وكانوا قد عادوا في سيرتهم إلى حياة العرب الجاهليين
فعاشوا من الغزو والحرب ونسوا الزكاة والصلاة وأصبح
الدين اسماً لا مسمى له . فأراد محمد بن عبد الوهاب
أن يجعل من هؤلاء الأعراب الجفأة المشركين قوماً
مسلمين حقاً على نحو ما فعل النبي بأهل الحجاز منذ أكثر

من أحد عشر قرناً .

ومن الغريب أن ظهور هذا المذهب الجديد في نجد
قد أحاطت به ظروف تذكّر بظهور الإسلام في الحجاز
فقد دعا صاحبه إليه باللين أول الأمر فبعه بعض الناس
ثم أظهر دعوته فأصابه الاضطراب وتعرض للخطر ، ثم
أخذ يعرض نفسه على الأمراء ورؤساء العشائر كما عرض
النبي نفسه على القبائل ثم هاجر إلى الدرعية وباعه أهلها
على النصر ، كما هاجر النبي إلى المدينة . ولكن ابن
عبد الوهاب لم يرد أن يشتغل بأمور الدنيا فترك السياسة
لا ينشغل هو بالعالم والدين واتخذ السياسة
وأصحابها أداة لدعوته ، فلما تم له هذا أخذ يدعو الناس
إلى مذهبه فمن أجاب منهم قبل منه ومن امتنع عليه أغرى

به السيف وشب عليه الحرب ، وقد انتقاد أهل نجد لهذا
المذهب وأخلصوا له الطاعة وضحوا بحياتهم في سبيله على
نحو ما انتقاد العرب للنبي وهاجروا معه .

ولولا أن الترك والمصريين اجتمعوا على حرب هذا
المذهب وحاربوه في داره بقوة وأسلحة لا عهد لأهل
البادية بها لكان من المرجو جداً أن يوحّد هذا المذهب كلمة
العرب في القرن الثاني عشر والثالث عشر للهجرة كما وُحِدَ
ظهور الإسلام كلمتهم في القرن الأول . ولكن الذي
يعتينا من هذا المذهب أثره في الحياة العقلية والأدبية عند
العرب . وقد كان هذا الأثر عظيماً خطيراً من نواحٍ
مختلفة . فهو قد أيقظ النفس العربية ووضع أمامها مثلاً
أعلى أحبته وجاهدت في سبيله بالسيف والقلم واللسان .

وهو قد لفت المسلمين جميعاً وأهل العراق والشام ومصر
بنوع خاص إلى جزيرة العرب .

فبينما كان الترك والمصريون يجاريون الوهابيين كان
أنصار القديم من علماء العراق سواً منهم أهل السنة والشيعة
يردون على هذا المذهب ويكفرون أصحابه . وكان
الوهابيون يناضلون عن مذهبهم . وكان أولئك وهؤلاء
يقرأون كتب السلف في التفسير والحديث والتوحيد
والفقه يلتمسون الأدلة على آرائهم . وكان أولئك وهؤلاء
ينشرون الرسائل والكتب التي يضعونها . كما أخذوا
ينشرون الكتب القديمة التي يرجع إليها في التماس الأدلة
والبراهين . وكذلك عادت الحياة القوية إلى مذهب
أحمد بن حنبل الذي تبعه النجديون ، ونشرت كتب

ورسائل كثيرة لابن تيمية وابن القيم ، واستفاد العالم العربي كله من هذه الحركة العقلية الجديدة . وليس من شك عندي في أن هذه الحركة نفسها قد أيقظت أهل اليمن أيضاً ، فنهضوا يدفعون عن مذهبهم الزيدي ، ينشرون كتبهم القديمة ويؤلفون كتباً جديدة في الفقه والتوحيد والحديث . وما زالت مطابع القاهرة إلى الآن تطبع الكتب المختلفة لحساب الوهابيين من أهل نجد والزيديين من أهل اليمن .

وفي أثناء هذه الحركة العنيفة ظهر حول الأمراء المجاهدين من أهل نجد جماعة من الشمراء أخذوا يفتخرون بانتصارهم في المواقع ويعتدرون عملاً يصيبهم من الهزيمة .

وليس من الممكن أن يقال إنهم جددوا الشعر وأحدثوا
فيه ما لم يكن . ولكنهم على كل حال عادوا به إلى الأندلوب
القديم وأسمعونا في القرن الثاني عشر والثالث عشر في لغة
عربية فصيحة هذه النعمة العربية الحلوة التي لم تكن
تسمع من قبل . هذه النعمة التي لا يقلد صاحبها فيها أهل
الحضر ولا يتكلف فيها البديع وإنما يبعثها حرة وبجملتها كل
ما تجيش به نفسه من عزة وطموح إلى المثل الأعلى ورغبة
قوية في إحياء المجد القديم .

نجاح المصربون في إخماد هذه الثورة الوهابية ، أو قد
نجاحوا في إفساد هذه النهضة ولكنهم لم يقتلوها ! أضعفوا
سلطانها السياسي ولكن سلطانهم هم السياسي قد أضعفته
أوروبا بمعاهدة سنة ١٨٤٠ ، وعجز الترك عن أن يحكموا

قلب الجزيرة العربية فاستراح الوهايون وأمسوا جراحهم
وامتأنقوا قوتهم ونشاطهم ومضت نهضتهم الدينية في سبيلها
ثم تبعها في هذه الأيام نهضة سياسية بسطت سلطانهم
على نجد كله وعلى الحجاز كله وأعادت لهم المثل الأعلى وهو
قوميد الكلمة العربية . ولكن بلوغ هذه الغاية الآن ليس
من السهولة والبسر بحيث كان أوائل القرن التاسع عشر ،
فقد امتيقظ الشعور القومي في البلاد العربية كلها وأحاطت
بجزيرة العرب من جميع أطرافها قوة ليس فيها ما كان في
القوة التركية من الضعف والفساد والاضطراب والفقر وهي
قوة الانكاز . وليس الذي يعنينا هو المستقبل السياسي لهذه
البلاد وإنما الذي يعنينا هو المستقبل الأدبي . ومن المحقق
أن هذا المستقبل الأدبي سيكون باهراً في يوم من الأيام
قريب أو بعيد .

جمع ملك الوهابيين الآن جزءاً عظيماً جداً من الجزيرة
العربية ولم يبق سبيل إلى أن يظل الوهابيون وغيرهم من
ملوك العرب وأمرائهم بمعزل عن الحياة العالمية العامة كما
كانوا من قبل ، بل هم مضطرون إلى أن يتصلوا بالملك
الإسلامية والأوروبية اتصالاً سياسياً واقتصادياً منظماً .
وقد بدأوا ينظمون هذا الاتصال بالفعل : فللوهابيين وزير
مفوض في لوندرة ، وملك الوهابيين على اتصال مستمر
بممثلي الإنكليز في عدن . وقد بدأ الإيطاليون بدورون
حولهم . وهناك صلات أخرى ربما كانت أشد وأسرع
تأثيراً من هذه الصلات السياسية والاقتصادية وهي الصلة
العقلية التي تحدثها الصحف والمجلات ، والكتب تطبع
الآن بكثرة في مصر وفلسطين والشام والعراق وأمريكا .

وكلها أو كثير منها يصل إلى كثيرين من أهل الجزيرة العربية ، وهم يقرأون ويفهمون أحياناً ويعجزهم الفهم أحياناً أخرى . ولكنهم يعجبون على كل حال ، والإعجاب أول التقليد ، والتقليد أول الإنتاج الفني .

وقد بدأت بشائر الحياة الجديدة ظاهرة جليلة . ففي مكة صحيفة تنطق بلسان الحكومة وتُنشر أدباً وسياسة على نحو ما كانت تفعل الجريدة الرسمية أول الأمر ، كانت قبل أيام ملك الماشيين وهي الآن تسمى أم القرى . وكانت في مكة مجلة المصالح . وفي مكة مطابع . وفي مكة أيضاً وغيرها من مدن الحجاز مدارس مدنية على نحو المدارس المصرية الابتدائية تدرس فيها أوليات العلم درماً حديثاً وتعلم فيها بعض اللغات الأوروبية . كل هذا إلى

جانب التعليم الديني القديم . وأغرب من هذا أن دعوة
إلى التجديد الفكري والأدبي قد ظهرت في الحجاز منذ
أعوام متأثير ما يكتبه المصريون والسوريون وهذه الدعوة
عذيفة جداً فهي ساخطة أشد السخط على كل قديم في الحجاز :
على التعليم الديني والأدبي وعلى نظام الحكم وعلى الحياة
الاجتماعية . وقوام هذه الدعوة أن الحجاز يجب أن يحيا
حياة الأوطان الحرة المستقلة وأن يحتفظ من قديمه بالدين
واللغة ويأخذ عن الأوروبيين بعد ذلك ما استطاع ، وأن
يستفيد من إقبال المسلمين عليه للجحجح فلا يفنى هو في
المسلمين ، وأن يعنى أهله أشد العناية بالتعليم المدني واللغتين
الانكليزية والفرنسية لأن إحداهما لغة الاقتصاد والتجارة
والأخرى لغة العلم والأدب .

وقد بدأ الحجاز بالفعل يرسل شبابه إلى مصر
ليدرسوا فيها العلم على نحو ما يدرسه المصريون .
وأصحاب الدعوة إلى التجديد لا يكتفون بهذا بل يريدون
أن يعيشوا أبناء الحجاز إلى باريس ولندرة . وقد بدأ
الحجازيون المجددون يذشئون الشعر والنثر على مذهبهم
الجديد ولكنهم لم يوفقوا بعد إلى أن يكونوا للحجاز
شخصية أدبية ، إنما هم تلاميذ السوريين ، والسوريين
للمهاجرين إلى أمريكا بنوع خاص ، فمثلهم العليا في الأدب
يلتمسونها عند الريحاني وجبران خليل جبران ومن إليهما

ومع إصراف التجديدين في المحافظة ، بحكم مذهبهم
الوهابي ، فلن يستطيعوا مقاومة الحركة التجديدية التي

تأتيهم من العراق ومصر، وبين يدي الآن طائفة من القصائد
غير قليلة أنشأها جماعة من الشعراء النجديين في مدح
الملك عبد العزيز بن سعود . والذي يقرأ هذه القصائد
يجد فيها تأثيراً ظاهراً جداً للروح العراقي الذي يتجلى في
شعر جميل الزهاوي ومعروف الرصافي وعبد المحسن
الكاظمي ، والروح المصري الذي يتجلى في شعر حافظ
وشوقي . ولكن للشعر النجدي الجديد شخصية تميزه من
شعر العراق ومصر ، فهو على تأثره بالشعراء المحدثين محافظ
في لغته محافظة غربية يتخير القوافي الصعبة ويطيل فيها
ويكثر منها ويسرف في الألفاظ الغريبة البدوية كأنه
يلتمسها من المعاجم ، وكأنه يأخذها من لغة البادية
النجدية التي هي في مادتها على كل حال لغة الشعر العربي

القديم . وقلما يستطيع الشعراء النجديون أن يتبعوا شعراء
 العراق في تأثرهم بفلسفة المعري والخيام أو بالزعات الاوربية
 الحديثة ، أو يتبعوا المصريين في تجديدهم العنيف لألفاظ
 الشعر وأساليبه ومعانيه . وإنما هم معتدلون . وهم إلى إحياء
 الشعر القديم أقرب منهم إلى إيجاد شعر جديد . وهم يدوبون
 على كل حال . وهم ينشدون الملك في شعرهم كما كان يفعل
 القدماء . ويميزهم الملك على هذا الشعر بالابل أحيانا وبالتياب
 أحيانا أخرى وقلما يميزهم بالذهب والفضة . وأهل نجد
 يختلفون إلى العراق كثيراً والعراقيون يصعدون إلى
 نجد ، ولا بد من أن يعود الحال بين القطرين إلى ما كان
 عليه أيام بني أمية من التعاون الأدبي القوي .
 وفي إتهامة وعسير حياة عقلية ولكنها ضئيلة جداً .

وهي ممنة في التصوف متأثرة في ذلك بإفريقيا الشمالية ،
قد نقل إليها الأدرسيون طريقة مغربية انتشرت فيها
وظفرت بالسلطان السيامي ولكنها لم تحدث نهضة أدبية
ولم تغير من حال الأدب شيئاً .

أما اليمن فهي أشد البلاد العربية محافظة على قديم
القرون الوسطى ، يعنى أهلها بعلوم الدين على طريقة الزيدية
من الشيعة وينشرون الكتب الكثيرة في هذه العلوم
يطبعونها في مصر . ولهم شعر كثير ولكنه ما زال قديماً
متأثراً بالروح المصري الشامي الذي كان منبثاً في الشعر
قبل النهضة الحديثة : والشعر عندهم مختلط بعلوم الدين فقلما
تجد منهم عالماً دينياً إلا وله مشاركة في الشعر ، وأكثر أئمتهم
شعراء ، وإمامهم يحيى الآن مجيد الشعر على النحو القديم .

ومن غريب أمر اليمن أنها ظلت طوال القرون الوسطى
أكثر البلاد العربية حظاً من العلم والأدب في حواضرها
وكان يرجى أن تكون أسرع البلاد العربية إلى الأخذ
بأسباب الحياة الجديدة . ولكنها الآن ربما كانت أشد
البلاد الإسلامية كلها تمثيلاً للحضارة القديمة والأدب القديم .
وأهل اليمن يقدون على مصر ولكنهم يقدون للتجارة أو
لدرس العلم في الأزهر ، وليس منهم من يفكر في الاتصال
بالمدارس الحديثة . وليس في صنعاء مدرسة وليس فيها
مطبعة ، ومصدر ذلك فيما يظهر : اشفاق أهل اليمن
من الأجانب وإغلاقهم أبواب بلادهم في وجوه الأجانب من
المسلمين والأوروبيين جميعاً . ولكن الحضارة الحديثة المادية
قد استقرت على سواحل اليمن ولا بد من أن تفتحهم الأبواب

المغلقة ولن نستطيع اليمن منذ الآن أن تقاوم هذه الحضارة

* * *

وجملة القول إن جزيرة العرب الآن تشتمل على
نوعين مختلفين من الحياة العقلية : أحدهما محافظة قديمة لا
تزال قوية بحكم الجهل وانتشار الأمية ، والأخرى مجتدة
لا تزال ناشئة بحكم الاتصال بأوروبا والبلاد الإسلامية
الراقية . وسيشتد الصراع بين هذين النوعين من الحياة ،
ولكن النصر محقق للحياة الجديدة لأن جزيرة العرب قد
فتحت للحضارة الأوروبية وإن استطيع أن تغلق أبوابها بعد
اليوم في وجه هذه الحضارة . وقد يقال إن جزيرة العرب
تقد فتحت للحضارة الإسلامية في القرون الأولى ثم أغلقت
من دونها فما الذي يمنع أن تفتح للحضارة الحديثة الآن ثم

تعلق من دونها بعد حين ؟ والجواب على ذلك يسير سهل :
فقد كانت الحضارة الإسلامية القديمة تدخل بلاد العرب
على ظهور الإبل وفي الكتب المخطوطة ، أما الآن فهي
تفتح هذه البلاد بالسيارات والبخار والتلغراف والتلفون
والكتب المطبوعة والصحف والمجلات ، وأنى للبادية أن
تقاوم هذه القوى المختلفة ؟ المستقبل إذن للحياة الجديدة
لجزيرة العرب وسيكون هذا المستقبل قريباً في بعض
البلاد وبعيداً في بعضها الآخر ، ولكنه سيكون على كل
حال

طه حسين

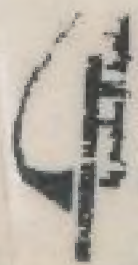
القاهرة :

مطبوعات

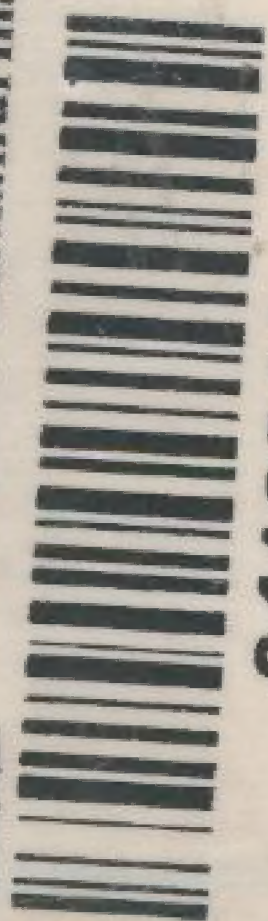
مكتب النشر العربي

ص ٠ ب ٠ « ٣٠٨ » دمشق سورية

قواعد التحديث	للسيد جمال الدين القاسمي
لقطة العجلان	تأليف الزركشي وشرح القاسمي
المنقذ من الضلال	لحجة الاسلام الغزالي
حي بن يقظان	لابن طفيل الاندلسي
ابن خلدون (متنجات)	لجميل صليبا وكامل عياد
محاضرات في الفلسفة العربية	للدكتور جميل صليبا
الثقافتان	{ للشيخ محمد بهجة البيطار
الصفراء والبيضاء	



Bibliotheca Alexandrina



0413532

مطبعة ابن

يطلب من :

مكتب النشر العربي

صندوق البريد رقم « ٣٠٨ »

دمشق (سورية)